بين يدي الكتـاب

بقلم الأستاذ محمد يتيم

طلب مني الدكتور سعد الدين العثماني الفقيه الأصولي والمفكر الإسلامي المغربي ، قبل أن يكون القائد الحركي أو السياسي ، بأن أكتب تقديما لإصداره الجديد هذا الذي يطل به على القارئ المغربي والقارئ المسلم ، بل والقارئ الأجنبي أيضا .

قد يستغرب القارئ العادي ومن لم يعرف الدكتور سعد الدين العثماني عن قرب ومن لم يعرف المدرسة التي ينتمي إليها وكان أحد الرواد المؤسسين فيها ـ وأقصد مدرسة الاعتدال في فرادتها وخصوصيتها المغربية وفي نهلها وتقاطعها وتكاملها مع مدرسة الاعتدال في الفكر الإسلامي المعاصر ـ ، كيف يتأتى له أن يجمع ليس فقط بين التخصص في الطب والتخصص في الشريعة ، بل بين هذا كله والإبداع فيه كله . فالدكتور سعد الدين ليس طالب استزادة في الألقاب والشهادات عندما نال ـ بالإضافة إلى الدكتوراه في الطب العام والتخصص في الطب النفسي ـ شهادات عليا في الدراسات الإسلامية ، بل كان فيها مبدعا ومجددا ومحيا لكثير من الإبداعات الأصولية فيها ، كما تبين ذلك رسالته في السياسية الشرعية المتعلقة بموضوع تصرفات الرسول ﷺ بالإمامة .

إن الدكتور سعد الدين العثماني استطاع إضافة إلى ذلك كله ـ وغيرها من الاهتمامات الأخرى في مجالات معرفية أخرى مثل الأخلاقيات الطبية ـ أن

يبقى مرتبطا بالنضال اليومي على عدة واجهات ثقافية وعلمية ودعوية حركية ، ناهيك عن العمل السياسي ، حيث واكب مع مجموعة من إخوانه ورفاقه في النضال من أجل ترجمة ثقافته الوسطية وخلفيته الأصولية في تجربة حركية وسياسية متميزة ، ليس وجوده على رأس حزب العدالة والتنمية وقيادته لسفينته إلا تتويجا وترجمة لها . كل ذلك في ظرفية صعبة ووسط عواصف هوجاء كانت ولا تزال تتربص بتلك التجربة الرائدة الدوائر .

وهو بذلك يجسد تجربة فريدة افتقدتها الساحة السياسية المغربية منذ رحيل زعماء من العيار الثقيل من أمثال الزعيم علال الفاسي ، والزعيم محمد بلحسن الوزاني ، ويتعلق الأمر بالتصالح في الشخصية المغربية بين البعد العلمي والفكري التجديدي وبين الممارسة السياسية . وهذه الخاصية خاصية فريدة ونادرة لا تتأتى لكل من تعاطى السياسة ، كما أن الارتباط بيوميات السياسة وتفاصيلها المرهقة لا يتأتى لكل من انتسب إلى حقل العلم والثقافة .

لقد أصبح من النادر جدا أن تجد قائدا سياسيا في عالمنا العربي والإسلامي موصولا بالفكر والثقافة ناهيك أن يكون مبدعا فيها ، والأمر هنا لا يتعلق بأي حقل معرفي ، بل يتعلق بأحد أشرف العلوم الإسلامية أي : بعلم أصول الفقه الذي يعرف به الدكتور سعد الدين العثماني في هذا الكتاب ، ويبين أهميته وخصائصه ودوره في بناء العقلانية الإسلامية والحضارة الإسلامية على العموم . ويبرز دوره في الوقاية من الانزلاقات الفكرية والعملية ، أي : من الغلو والتطرف باسم الغيرة على الدين ، أو من الميوعة والتسيب باسم حداثة أو عقلانية مزعومتين .

وليس غريبا أن يجد الدكتور سعد الدين العثماني ضالته في علم الأصول ؛ لأنه العلم الذي يجسّد في نفس الوقت الارتباط بالأسس والمنطلقات وبالمصادر والأصول ويواكب أيضا المتغيرات والمستجدات؛ فهو العلم الذي يضع الضوابط المنهاجية لتلك المراوحة الخلاقة بين المستويين ، وهي المراوحة التي جعلها الحق سبحانه وتعالى مناطا لتكليف العقل المسلم وابتلاء له ووسيلة لتحقيق تعبده ، بحيث لا يقع في الجمود المنافي لروح الشريعة التي تحاملت على التقليد ، والاتباع الأعمى لما كان عليه الآباء والأجداد ، ودعت أن يكون لكل جيل كسبه المعرفي والسلوكي في الدين ، ولا يقع في التسيب واتباع الهوى المضل عن سبيل الله .

وليس غريبا أن يجد الدكتور سعد الدين العثماني ضالته في علم الأصول باعتباره علما يتأسس على الاستنباط الفقهي ويقوم على منهج عقلي واقعي قوامه الاستقراء ، ويؤدي إلى تكوين ملكة مقاصدية تنظر إلى الشريعة في كليتها ، وتمكن من التمييز بين الثوابت والمتغيرات وترد الجزئيات إلى الكليات .

ليس غريبا أن يجد ضالته فيه لأنه يرتب المعيار العقلي الإسلامي ويزوده بأدوات منهجية لمواجهة كثير من القضايا المستجدة ، وتجعله قادرًا على التمييز بين مجال الثوابت والمتغيرات ، بين ما هو داخل في أصول الدين وما هو داخل في نطاق المصلحة المرسلة ، بين ما هو داخل في نطاق الوحي والتصرف بالرسالة وما هو داخل في نطاق منطقة «العفو» التشريعي والتصرف بالإمامة أو التصرف بالطبيعة البشرية .

ولذلك لم يجد الدكتور سعد الدين العثماني صعوبة في الانتقال من علم الأصول إلى الفقه الدعوي ، فهذا الأخير ليس سوى تطبيقا لمبادئ الأول وقواعده في الحقل الدعوي فكانت له كتابات في الفقه الدعوي بعضها متضمن في فصول هذا الكتاب ، ومن علم الأصول إلى السياسة الشرعية باعتبارها مجالا لتنزيل قواعدها وكلياتها وباعتبارها تتعامل مع الواقع البشري المتغير وتعمل فيه على توسيع دائرة المصالح وتكثيرها وتضييق دائرة الفاسد وتقليلها .

والواقع أن من لم يستحضر هذه الخلفية الأصولية ، قد ينظر إلى المدرسة الفكرية والسياسية التي ينتمي إليها الدكتور سعد الدين العثماني ـ ويعتبر ممن شقوا لها طريقا راسخا في الساحة الفكرية والسياسية المغربية ـ باعتبارها مجرد تعبير عن ميكيافيلية سياسية لا غير ، ونزعة تصالحية مع أوضاع فاسدة ، في حين أنها تجسيد لعقلانية أصولية ضاربة الجذور في ثقافتنا الإسلامية ، عقلانية حجبها غبار عصور الجمود والتخلف ، وشوشت عليها خطابات انفعالية قادت الأمة في التاريخ البعيد والقريب إلى كوارث ضاعت معها كثير من المصالح وجلبت فيها كثير من المفاسد تحت شعارات الإصلاح والتغيير ، عقلانية تضمن الوسطية العاصمة من الإفراط أو التفريط و من الغلو أو التسيب .

ليس غريبا أن يكون الدكتور سعد الدين العثماني واحدا من الرواد الذين اختطوا تجربة دعوية وحركية وسياسية أصبحت تحظى باحترام واسع ، ليس فقط في العالمين العربي والإسلامي ، بل في العالم بأسره . ومن يظن أن المسالة

مرتبطة فقط ببروز حزب العدالة والتنمية على الساحة السياسية المغربية قد يخطئ في التقدير ، فتجربة حزب العدالة والتنمية ليست سوى نموذج تطبيقي للثقافة الأصولية بمواصفتها تلك في المجال السياسي . والمهم في هذه التجربة الأصول الفكرية والمنهجية التي جعلتها ممكنة وجعلتها تفرض احترامها على الخصوم قبل الأصدقاء . وتعتبر الثقافة الأصولية بالمواصفات والخصائص التي يتحدث هنا الدكتور سعد الدين العثماني عنها ، بانيتها فكرا ومنهاجا .

ولقد سعدت في مساري الحركي والدعوي والسياسي ـ من بين ما سعدت به ـ بصحبة الدكتور سعد الدين العثماني ، وتتبعت عن قرب لحظات بلورة ، ونضح كثير من الأفكار التي يتضمنها هذا الكتاب . ورأيت كيف كان الدكتور العثماني يبلور كثيرا منها مستعينا بالمنهج الاستقرائي الذي تعلمه من أصول الفقه ، إلى أن تنتقل الفكرة من قضية جزئية إلى قضية كلية ، وكيف كان مبدأ ولادة تلك الأفكار ينطلق من ملاحظات نقدية حول سلوك فردي أو جماعي أو حول فهم متأثر برواسب عصور الانحطاط بمسبقات فكرية لا علاقة لها بالشريعة الإسلامية ، وإن كان الظاهر قد يوحي بذلك ، كي يتحول إلى قضية كلية تسهم في ترتيب نظرة المسلم المعاصر إلى القضايا وتسهم في الإجابة على كثير من الإشكالات الناشئة عن ثنائيات مصطنعة مثل ثنائية الدين والدولة ، والدين والسياسة ، والأصالة والحداثة والشورى والديمقراطية وقضايا أخرى مثل حقوق المرأة ومشاركتها السياسية والعلاقة بالغرب ...إلخ .

ويتميز الدكتور سعد الدين العثماني بقدرة كبيرة على التتبع والبحث المتأني واستغلال أي فرصة سانحة من الوقت في سفره أو حضره ، بل أحيانا حتى وهو يشارك في اجتماعات لهيئات مسيرة ، دون أن يقلل ذلك من إسهامه ومشاركته فيها .

إن هذا الكتاب الذي يضعه الدكتور سعد الدين العثماني بين يدي القارئ اليوم يطرح موضوعا كبيرا يتعلق بالسعي إلى بناء ثقافة أصولية ، أي بناء منهج علمي استقرائي واقعي مقاصدي لدى القارئ ، وهو في الواقع إعادة تفكير وتنظير لممارسة نضالية يومية هي التي قادت إلى بناء معالم المدرسة الفكرية الإسلامية المغربية وتجلياتها الحركية والسياسية . وهو يشكل استجابة عملية لطلب متزايد على أن تضطلع التجربة الإسلامية الوسطية المغربية دورها في الترشيد الفكري والسياسي للتجربة الإسلامية في العالم العربي والإسلامي ، وعساه أن يشكل إضافة نوعية إلى المكتبة الإسلامية المعاصرة ، إضافة تجمع إلى الأصالة الفكرية الممارسة الميدانية التي حولت أصول الفقه إلى أداة منهجية حية تشتغل في الواقع الملموس ، ومن ثم تسهم في تجديد هذا العلم من خلال العمل بمنهجه ووفق قواعده وأدواته المعرفية .

وكلمة أخيرة تتعلق بقضية التجديد الفكري التي قد يسميها البعض الآخر الحداثة الفكرية . لقد بين تاريخ الفكر الإنساني والتجربة الغربية على الخصوص أن مدخلها إلى النهضة كان عبر تعامل مع التراث وقراءة نقدية تحيي جوانبه الإيجابية وتتجاوز جوانبه السلبية ولم تكن النهضة الأوروبية

obeikandl.com

نتيجة استنساخ بليد للتراث العربي الإسلامي رغم أنه كان يمثل حداثة ذلك العصر والنموذج الأمثل للعقلانية . ويخطئ الكثيرون الذين يعتبرون أن الدخول إلى الحداثة يكون بالدعاوى الفارغة من المضمون أو برفع شعاراتها بينما أهلها غارقون في أسوء أنواع التقليد . الحداثة إبداع خلاق متواصل ، وهي إحياء وتطوير لأفضل ما في التجربة الإنسانية . وفي حالتنا العربية الإسلامية لا يمكن لمن كان مقطوعا عن الثقافة الإسلامية ، غير ممسك بروحها ، ولا مطلع على فلسفتها أن يكون مبدعا ومجددا فيها ، وهو ما يشهد عليه أن ما عرف بالقراءات الجديدة كان أغلبها إسقاطا متعسفا لمناهج نشأت في سياقات معرفية وتاريخية وحضارية أخرى و تطويعا بليدا لذلك التراث وسعيا لإخضاعه لقوالب ومفاهيم جاهزة .

والأكثر من ذلك يستحيل على من لم يطلع على علم الأصول ومن لم يتشبع بالثقافة الأصولية التي تعتبر التعبير الأمثل عن العقلانية الإسلامية التي تحرر النظر العقلي الإسلامي من الجزئية والحرفية ، وترتقي به إلى آفاق النظر المقاصدي التجديدي الخلاق ، يستحيل على من كان فقيرا في تلك الثقافة أن يزعم أنه قادر على أن يسهم في تحقيق نهضة فكرية وثقافية وفي إعادة بناء العقل الإسلامي ، ومن ثم في إعادة تعبئة قدرات العقل المسلم جماعيا وفرديا للانخراط في عملية النهضة الشاملة . ومن ثم تبدو أهمية هذا العمل الذي يقدمه الدكتور سعد الدين العثماني للقراء ، وتبدو أهمية المدرسة الفكرية التي ينتمي لها في الاضطلاع بمهام التجديد والتحديث في جميع أبعاده ومناحيه .

محمد يتيم - سلا ١٥ رمضان ١٤٢٦هـ موافق ١٩ أكتوبر ٢٠٠٥م